أحمد سويلم شاعراً للأطفال

أحمد فضل شببلول *

لم يكن أمير الشعراء أحمد شوقي (1868 - 1932) وحده هو الذي دعا الشعراء العرب لكتابة الشعر للأطفال، ولكن دعا بعده الشاعر أحمد سويلم (1942 -) لكتابة الشعر للأطفال، على الرغم من اختلاف العصرين، والزمنين، والجيلين، واختلاف الأطفال أنفسهم؛ أطفال أواخر القرن التاسع عشر عن أطفال أواخر القرن العشرين.

لكن أحمد شوقي نفسه - بعد عودته من دراسته في فرنسا عام 1893، تخلى عن مشروعه لكتابة الشعر للأطفال، بينما استمر سويلم في مشروعه ورسالته التي أنتجت عشرات الأعمال الشعرية للأطفال ما بين القصائد المفردة والمسرحيات الشعرية، إلى جانب المقالات والدراسات وعضوية التحكيم في مسابقات شعرية للأطفال، وغير ذلك مما ينتمي إلى عالم الشعر المكتوب للأطفال باللغة الفصحى المبسطة.

لقد بدأ أحمد سويلم مسيرته في الكتابة للأطفال بتبسيط قصص من ألف ليلة وليلة، وكانت لغة التبسيط نثرية. ثم كتب أول مسرحية شعرية باللغة الفصحى عام 1982 عن كامل كيلاني في ذكراه - وكانت بعنوان: "حكايات وأغانى كامل الكيلاني" واحتوى العمل على رؤية تسجيلية درامية، قدم خلالها ثلاث قصص: واحدة من حكايات جحا، وواحدة أخرى من ألف ليلة وليلة، وثالثة من التراث الفلسفي؛ هي: حَيُّ بن يقظان. ثم وجد أمامه الأفق مفتوحاً للكتابة للطفل، فبدأ محاولات شعرية قصيرة، بعضها قصائد، وبعضها أقاصيص شعرية على أفواه الحيوانات، وبعضها مسرحيات شعرية.

إن أحمد سويلم لم يكتفِ بكتابة الشعر إلى الأطفال، فحسب، ولكن لجأ أيضاً إلى البحث والدراسة في عالمهم أو عن عالمهم، وكيف ينظر الشعراء إليهم، فكان كتابه المهم "أطفالنا في عيون

* شاعر وباحث وكاتب في ثقافة الطفل - مصر.

الشعراء"، الذي يرى الشاعر والناقد الراحل د. أنس داود أنه "يُعدُّ حتى الآن أتمَّ محاولة في الرصد التاريخي لشعر الأطفال، فهو حافلٌ بال نماذج التراثية والمعاصرة، وحافلٌ أيضاً بأسماء كثيرين من الذين يشغلهم شعر الأطفال في العالم العربي، كما أنه يفتح الطريق إلى كثيرٍ من المصادر والمراجع في الإبداع الشعري للطفل، وفي دراسة هذا الإبداع أيضاً".

ويُمثِّل كتاب "أطفالنا في عيون الشعراء" دعوةً لزحف جماعي من الشعراء نحو الكتابة للأطفال؛ لكي يظل وجه الحضارة العربية مشرقاً في لغةٍ عربيةٍ سليمة، وفي طفل سوف يحكم العالم لا محالة. وحيثيَّات هذه الدعوة تكمن في أنه لا غنَاءَ عن الشعر، ولا غناء للشعراء عن الكتابة للأطفال؛ ولهذا فإن الحماسة تتملِّك مؤلف الكتاب فيدعو أصدقاءه من الشعراء لعمل "ديوان الطفل العربي" على أن يكون ذا شَقِّين:

- 1 - شقُّ تُجمع فيه نماذج من التراث - ماضيه وحاضره - مع شروح بسيطة على أن تُختار بعناية ودقة، وبه تعريف للشاعر صاحب القصيدة، ومناسبة القصيدة إن وُجدت.
- 2 - وشقُّ حديث مؤلَّفٍ خِصِيصاً، تتسع فيه الرؤى والرقة الفنية على مستوى القصيدة أو الألوان الأخرى للإبداع.

ويبدو أن الحماسة نفسها هي التي دفعت الشاعر أحمد سويلم لتأليف كتابه "أطفالنا في عيون الشعراء"، في محاولة مخلصه وجادةً لتتبع مسيرة الكتابة الشعرية للأطفال منذ فجر الحضارة الإنسانية وحتى اليوم. (والذي بين أيدينا طبعته الثانية الصادرة عن دار المعارف بالقاهرة، سلسلة "اقرأ" عام 1987).

وإذا نظرنا في شعر أحمد سويلم للأطفال سنجد أن الحسَّ القومي والعروبي يعلو في قصائده، فنقرأ على سبيل المثال ديوانه "فلسطين عربية" (2003)، وسيرٌ وملاحم عربية (2006-2007) وديوان الفتى العربي (1997) وغيرها.

وتجيء قصيدة "فلسطين عربية" كروية شعرية يقدمها الشاعر للأطفال المرحلة المتوسطة في كتابٍ ملوَّنٍ أنيقٍ الشكل، صدر عن دار نهضة مصر بالقاهرة عام 2003 ويحتوي على قصيدة واحدة طويلة يرافقها رسوم ملوَّنة ومعبرة للفنان التشكيلي عبد العال.

والقصيدة عبارة عن رسائل شعرية قصيرة ومتتابعة ولا يوجد فاصل بينها، يوجهها مجموعة من الأطفال الواعين لزملائهم وأصدقائهم في المدرسة، وللفلسطينيين أصحاب الحق الساطع،

ولعقلاء العالم كي يُفبقوا من غفوتهم وبقفوا في وجه الباطل؁ ثم رسالة إلى اليهود أنفسهم؁ بقول فيها الأطفال:

هذا تاريخ الأمة
منقوش بالمجد
يا أعداء الإنسان
لو كنتم شعب الله المختار
فمن نحن؟
كفوا هذا الكذب
أفبقوا من غفوتكم
لن تجدوا فينا إلا عزم الأحرار
رايات الباطل فوق معابدمكم
تقطر بدماء الشهداء
تبراً منكم نجمة داود
وموسى في نوراته
لن نغمض يوماً جفننا
لن نتردد عن خطوة حق
حتى لو كانت بدماء

وأيضاً هناك رسالة يوجهها الأطفال إلى الله - سبحانه وتعالى - ضمن سياق القصيدة؁ بقولون فيها:

بارك يارب خطانا
من أجل أشقاء
عانوا قصف الأعداء

وهكذا تتكامل أطراف المرسل والمرسل إليه؁ أو أطراف الصراع (العربي - الإسرائيلي): الأمر الذي يدل دلالة قوية على تفهم هؤلاء الصغار لأبعاد القضية الفلسطينية؁ وهي مضمون كل الرسائل التي يحملها أو يبعث بها الأطفال في قالب شعري اعتمد على الشكل التفعيلي ذي القافية المتنوعة بما يناسب سن الطفولة التي يكتب لها الشاعر؁ ومما يحسب لهذه الرؤية الشعرية أنه من الممكن مسرحتها؁ أو أدائها على خشبة المسرح المدرسي - أو غيره - في احتفالية

فلسطينية لتصل إلى عددٍ أكبر من المتفرجين أو الأطفال مشاهدي العرض سواء على خشبة المسرح، أو بعد التصوير الحي، عبر الوسائط المختلفة.

أما الرسالة الشعرية الموجهة إلى عقلاء العالم، فيقول فيها الشاعر على لسان الأطفال:

يا عقلاء العالم
أفيقوا من غفوتكم
وقضوا في وجه الباطل
كيف رضيتم بضلال الفكر
وناصرتُم هذا الشر
الصورة واضحة وقوية
تملاً أعيُنكم وضمائركم
كيف غفلتم عنها
من أجل الطمع الإنساني
أفيقوا يا عقلاء العالم!

وهكذا يصوغ الشاعر معاني كبيرة، وقضايا كثيرة متشابكة، في سهولة ويسر، وفي كلمات واضحة مُبينة لا لبس فيها ولا غموض، يفهما ويتفاعل معها الطفل القارئ - أو المشاهد - فينحاز على الفور إلى عدالة القضية الفلسطينية، ويؤمن بها، ويدافع عنها، وهذا هو أهم مكسب يخرج به الطفل العربي من خلال الرؤية الشعرية التي يطرحها الشاعر أحمد سويلم، صاحب الأعمال الشعرية الكثيرة للأطفال.

وها هو أحمد سويلم يواكب تطورات القضية الفلسطينية، ويقدم خلاصتها المُركزة والمُصفاة، للأطفال من خلال هذا البناء الفني المتكامل "فلسطين عربية".

أما ديوانه "أحلامي الجميلة" (2010) فقد احتوى على عشر قصائد طويلة، وجاء في 80 صفحة، من الورق المُلون المصقول، برسوم الفنان مسعد يونس، ومعظم قصائده جاءت على لسان الطفل نفسه، ويبدو شاعرنا بتوجيه رسالة للقارئ الصغير يقول فيها: "هذا ديوان جديد من الشعر السهل أقدمه لك. وهو متنوع الموضوعات. ولا بد أنك سوف تستمتع بقراءته لأنه يقدم لك عالمك الخاص وعلاقتك مع الأشياء والطيور والحيوان، ويقدم لك أحلامك، ويفسر لك بعض الأسماء؛ أي أنه لا يبتعد عن عالمك الجميل، وقد كتبته بالشعر وباللغة الفصحى الجميلة المبسطة؛ لأن الشعر يُجمل الحياة، واللغة هي أداتنا الرقيقة العذبة لتذوق جمال الحياة. أتمنى أن يروق لك

هذا العمل على وعدٍ بمزيدٍ من الشعر، ومزيدٍ من الجمال".

وهو في هذا التقديم أو الرسالة يوضح الشاعر منهجه في الكتابة للأطفال، فهو يقدم شعراً سهلاً يقتحم عالم الطفل، مُتفهماً للعلاقة الخاصة بين الطفل وعالم الأشياء والطيور والحيوان، معانقاً لأحلام الطفل، مفسراً لمعنى الأسماء التي قد يصادفها الطفل في حياته اليومية، فيعرف ما معنى هذا الاسم وذاك الاسم فيكون حصيلة لغوية معرفية بالأسماء ومعانيها. ويوضح الشاعر أنه مستمسك باللغة العربية الفصحى في مخاطبته للطفل، ولكنها اللغة السهلة البسيطة المُيسرة التي تناسب سنَّ الطفولة بمراحلها المختلفة، وعلى الرغم من أن الشاعر والناشر لم يوضحا السن الموجهة إليها قصائد الديوان، فإننا نستطيع أن نقول إنها تنتمي للمرحلة من الثانية عشرة فما فوق، ويفسر الشاعر لماذا لجأ إلى الفصحى ولم يكتب بالعامية؛ لأن تلك اللغة هي أذاتنا الرقيقة العذبة لتدوَّق جمال الحياة، وهو قول فيه من العموم ما يجعله ينطبق أيضاً على العامية، ففي العامية رقة وعذوبة وجمال أيضاً، ولكن الشاعر لم يُرد أن يوجه خطاباً يصعب على الطفل أن يفهمه عن مميزات اللغة العربية الفصحى وفضائلها، التي توحد العرب والقادرة على نقل أحاسيسهم ومشاعرهم القومية في كل ربوع الوطن العربي كما رأينا في قصيدة "فلسطين عربية"، وأن عامية المغرب قد لا يفهمها المصري، وعامية السودان قد لا يفهمها التونسي أو السوري.. وما إلى ذلك من مفاهيم قد يصعب إدراكها أو التعامل معها في تلك الفئة العمرية. وعلى الرغم من إنتاج الشاعر الكبير للأطفال والذي سبق تبيان بعضه، فإنه يتمنى أن يروق للطفل هذا العمل الجديد، فهل هو في شكٍّ ألا يروق للطفل مثل هذا العمل، أم أنه شعور الفنان مع كل عمل جديد يقدمه، والقلق الذي ينتابه مع كل خطوة جديدة في عالم الشعر والفن. إنه يعدُّ الطفل بمزيد من الشعر ومزيد من الجمال، فيؤكد بذلك تواصل الرسالة التي يعيش الشاعر من أجلها في تمسكه بعالم الطفولة وأهدها.

يتميز هذا الديوان بوجود عوالم شعرية جديدة للأطفال؛ من أهمها أسماء ومعاني الأصوات التي يقدمها الشاعر في صور شعرية متتالية، فيتعرّف الطفل إلى هديل الحمام، وحفيف الشجر، وخزير المياه، ومواء القطط، وصرير القلم، وصهيل الخيول، وزقزقة العصافير، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، وطنين الذباب، ونعيب الغراب، ونقيق الضفادع، ونهيق الحمار، وفحيح الأفاعي، وزئير الأسد، وأبواق السيارات، وكلها أصوات قد يسمعها الطفل في حياته اليومية بأذنه، ولا يعرف أسماءها، ويظن أن كلها أصوات، ولكن من خلال القصيدة يدرك أن لكل صوت اسماً،

وأن هناك فروقاً واضحة في المُسمَّيات وفي معناها، وكأن الشاعر يقدم لنا قاموساً مبسطاً للأصوات، يُدكِّرنِي بمعجم الأصوات في اللغة العربية لحמיד السيد رمضان وعدنان كريم (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق 1993).

وعن هديل الحمام يقول الشاعر على سبيل المثال:

أحِبُّ هَدِيلَ الْحَمَامِ

كَأَنَّ الْحَمَامَ يَقُولُ:

تَعَالَوْا وَعِيشُوا حَيَاةَ الْوَنَامِ

وَكُفُّوا الْعِدَاءَ

وَشُدُّوا الْأَيْدِيَ بِحَبْلِ السَّلَامِ

ومن خلال هذه الجزئية، أو من خلال هذا المقطع، يعرف الطفل أن صوت الحمام اسمه هديل، وأن الحمام يرمز دائماً للسلام.

أما صوت المُوَاءِ فهو للقطط:

أَحِبُّ مُوَاءَ الْقَطَطِ

وَأَعْرِفُ حِينَ تَجُوعِ

وَحِينَ تَدَاعِبُ

وَأُسْرِعُ أَحْمَلَ أَشْهَى الطَّعَامِ لَهَا

ثُمَّ تُقْبِلُ شَاكِرَةً.. وَتَلَاعِبُ

كما يعرف أن المُوَاءِ تطلقه القطعة في لحظة الجوع، وأيضاً في لحظة اللعب أو المداعبة. وهكذا يحصد الطفل أكثر من خمسة عشر صوتاً في تلك القصيدة لبعض الطيور والحيوانات والأشياء والمياه والشجر والحشرات، من خلال تفعيلية "فَعُولُنْ" التي تنتمي إلى بحر المُتَقَارِبِ الشعري، والذي تتميز موسيقاه وإيقاعه بالتدفق والجرس الواضح في سمع الطفل. ونلفت إلى أن عنوان القصيدة هو "أَحِبُّ الْأَصْوَاتِ"، وليس "أَحِبُّ الْأَصْوَاتِ": بمعنى أنه هذه الأصوات أَحِبُّ إلى الطفل من أصوات أخرى غيرها مثل الصَّاخِرِ: وهو صوت الحديد بعضه على بعض. أو الخَشْخَشَةَ: وهو صوت السلاح. أو الجَرَاخِمِ: وهو صوت اللبن في الوَطْبِ (والوَطْبُ: إناءً للبن من الجِلْد) وهي أصوات قد لا يحبها الطفل، أو هي بعيدة عن عالمه اليومي: لذا لم يتطرق إليها الشاعر. أيضاً من خلال قصيدة "أحلامي جميلة" يتعرض الشاعر لعالم الروائح، ويعرّف الطفل أن هناك روائح ذكية، وروائح كريهة، وأن الأنف هو جهازنا البشري، ودليلنا الشَّمِّي إلى عالم الروائح

الزكية والخبثية، الطيبة والكريهة. وأن الشَّمَّ هو إدراك الروائح. وذلك من خلال المقطع:

أحلم أن أرى في كل شارع

حديقة من الزهور

تنشر في المدى الروائح الذكية

تنقلها الريح إلى كل مكان

فلا يشمُّ الناس

ذلك الأذى من الدخان.

أحلم أن أشمَّ نسمة رقيقة

في الصيف

ترطب الجوَّ وتنعش النفس

وتجعل الناس تعيش دون خوف

ويدرك الطفل مدى أهمية تلك الحاسة، وهي حاسة الشَّمِّ، التي تختلف عن حاسة السمع في قصيدة "أحبُّ الأصوات". وهنا ينجح الشاعر في إطلاع الطفل على التفرقة الحقيقية بين عالم الحواسِّ المختلفة. إنه يدرس في المدرسة أن الإنسان يملك خمس حواس؛ هي: العين للإبصار، والأذن للسمع، والأنف للشَّمِّ، واللسان للتذوُّق، واليد للَّمْس، ولكن كيف يتم توظيف ذلك فنياً، وعن طريق نصِّ شعري، يساعد على اتساع مدارك الطفل لووظيفة هذه الحواسِّ التي حباها الله بها، هذا ما نجح فيه شاعرنا أحمد سويلم.

وإذا كانت قصيدة "أحبُّ الأصوات" قد نجحت في تعريف الشاعر بعالم الأصوات، فإن قصيدة "عاشت الأسامي" نجحت في أن يتعرَّفَ الطفل إلى معاني الأسماء، وقد اتبع الشاعر الترتيب المعجمي، الذي يبدأ بحرف الألف وينتهي بحرف الياء، في حديثه عن الأسماء، فبيداً باسم "إبراهيم" وينتهي باسم "يسراً" مروراً بكل الحروف الأخرى، ويختار لكل حرف اسماً ويشرح معناه من خلال تفعيلات بحر الخَبَب "فعلن فعلن فاعل"، فيختار مثلاً اسم "شادي" تمثيلاً لحرف الشين:

اسمي.. شادي

أشدو بجميل الألحان

لا أعرفُ طعمَ الأحزان

فيعرف الطفل معنى اسم شادي، وأنه مرتبط بالألحان، وعندما يسمع أغنية فيروز "شادي

الألحان" - على سبيل المثال - يعرف أن هناك صلةً بين الشدو والألحان. ولكنه عندما يعرف معنى اسم فيروز (كخيارٍ لحرفِ الفاء) نفسه في قول الشاعر في القصيدة نفسها:
اسمي.. فيروز

بين بناتِ بلادي مثل الفيروز

حجر في بطن الأرض كريم وعزيز

يدرك أن فيروز - وهو اسم المطربة التي غنّت لشادي في أغنيّتها الجميلة "أنا وشادي" - هو حجرٌ من الأحجار الكريمة موجود في باطن الأرض، وأنه حجر كريم وعزيز. ولعلّه يسأل وهل هناك حجر كريم وعزيز؟ ليعرف أن هناك - بالفعل - نوعاً من الأحجار أُطلق عليها الأحجار الكريمة؛ لأنها تُعدُّ من الأحجار المميزة التي تحظى بروعة الشكل وجاذبية اللون والصلابة العالية؛ مما يُعطي من قيمة الحجر الكريم إلى الدرجة التي تجعله من الأحجار والمجوهرات النفيسة الثمينة، وأن هناك أحجاراً أقلّ شأناً وهي الأحجار شبه الكريمة، وأحجاراً أقلّ شأناً وشأناً وهي الأحجار العادية، مثل أحجار البناء والأحجار الجيرية.

ويُنهي الشاعر تلك القصيدة بقوله:

والآن

هل أدركتَ معي معنى بعض الأسماء

وعرفتَ معانيها الحلوّة

من ألفِ اللغَةِ إلى حرفِ الياء.

ونلاحظ قول الشاعر: "هل أدركت معي" فهو يشارك الطفل تلقّيه للمعرفة والتعلّم، فلا نحسُّ بنوعٍ من التعالي على الطفل، بل هو يشاركه في يومه وفي علمه وفي تفكيره، وهو ما يجعل الطفل والشاعر متشاركين في الإحساس.

لقد احتوى ديوان "أحلامي الجميلة" على عشر قصائد طويلة نوعاً ما، ولكنها تتصف جميعاً بإعطاء الطفل جرعات معرفيةً وتعليمية، إلى جانب القيم الفنية والموسيقية الشعرية التي تنوعت بين أربع تفعيلات (فَعْلُنْ، ومُفَاعَلُنْ، ومُسْتَفْعِلُنْ، وفَعُولُنْ). وقد لاحظنا أن قصيدة سويلم للأطفال دائماً ما تكون مكتنزة بالمعلوماتية والشعرية؛ لتجيء مناسبةً تماماً لعصر المعلوماتية الذي نحياه جميعاً، فيشعر الطفل بأن الشعر لم يتخلف عن مواكبة هذا العصر الذي يعيش فيه؛ ومن هنا تأتي أهمية الأعمال التي يقدمها الشاعر أحمد سويلم لأطفالنا.